

مظاهر التشاكل الدلالي في شعر عبد الرحمن المجذوب

د. نسيبة مساعدي

جامعة عباس لغرور - خنشلة (الجزائر)

sibamess@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2019/12/31

تاريخ القبول: 2019/12/28

تاريخ الإرسال: 2018/12/31

الملخص:

تنطوي قراءة المتن على أهمية كبيرة في الدراسات النقدية القديمة والمعاصرة، فهي تفتح بابا -كان مغلقا- قبل الولوج إلى النص، وذلك باستعانة آليات إجرائية تخدم المنهج المتبع وتمنحه حيوية داخل النص، وهنا تظهر ثنائية المنهج/النص فكلما قارب المنهج النص بشكل سليم يسر أمام القارئ سبيله ومبتغاه.

ويحظى الشعر الشعبي باهتمام واسع في الدراسات النقدية الحديثة وحتى الجمالية، قصد استكناه أغواره واستنباط مضامينه وبيان ما يزر به من فنيات لغوية وفنية تؤسس كيانه الخاص وتتوالد دلالاته تبعا لنوعية المقاربة. لهذا أردت مقارنة بعض أشعار الشاعر الشعبي المغربي عبد الرحمن المجذوب واكتشاف آلية تشاكلها مع صور الحياة وكيف تنتظم دلالاتها المتوارية خلف اللغة.

الكلمات المفتاحية: التشاكل الدلالي ; الدلالة ; عبد الرحمن المجذوب ; الشعر الشعبي ; الدلالة.

التشاكل: التحديد الاصطلاحي والضبط المعرفي:

عُدَّ غريماس Aj Greimas المنظر الأول لمفهوم التشاكل بخاصة بعد نقله من ميدان الفيزياء إلى اللسانيات، ليكون مثار جدل وطرح بين الدارسين من ناحيتي المفهوم والإجراء غير أنهم اتفقوا على أن التشاكل آلية إجرائية يحلل بها الخطاب، فغريماس في كتابه "الدلالة البنوية" قصر تلك الآلية على تشاكل المضمون، في حين عمّم فرنسوا راسستي⁽¹⁾ RastierFrancois، المصطلح ليشمل التعبير والمضمون معا، ويندرج ضمنه أنواع وهي: التشاكل الصوتي، النبري الإيقاعي، المنطقي، المعنوي.

ثم تابع هذه الرؤية جماعة U في كتاب "بلاغة الشعر"، ويخلص راسستي بعد قراءة المجهود الغربي النقدي لمصطلح التشاكل إلى التعريف الآتي «هو تنمية لنواة معنوية سلبية أو إيجابية، بإحكام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداولية ضمانا لانسجام الرسالة»⁽²⁾.

ثم عرضه عبد الملك مرتاض على أنه «تشابه العلاقات الدلالية عبر وحدة ألسنية إما بال تكرار أو التماثل أو بالتعارض سطحا وعمقا وسلبا وإيجابا»⁽³⁾، إضافة إلى أن مرتاض عائد في ذلك إلى التحديد اللغوي للتشاكل المأخوذ من اللغتين الفرنسية والإنجليزية معا ومن جذرين إغريقيين هما: (Jsos) بمعنى التساوي أو يساوي،

و(Topos) أي المكان، ثم تم الجمع بينهما في لفظ واحد مركب من جذرين اثنين: (Jsotopie_ jsotopy)، وهذه التوليفة هي المكان المتساوي أو تساوي المكان⁽⁴⁾.

ونجد رشيد بن مالك يحدد التشاكل انطلاقاً من المقابل الأجنبي قائلاً «تضمن الإيزوتوبيا ختام الرسالة أو الخطاب، وهي بمثابة المستوى المشترك الذي يرد ممكنات اتساق المضامين، ينبغي أن يفهم من المستوى المشترك ثبات بعض الأدلة على مستوى الجملة، يمكن أن يتحدد ثبات دلالة واحدة أكثر من مرة على امتداد السلسلة الجمالية ليعطي إيزوتوبيا تؤدي إلى التحام مجموعة من المسميات التي تشكل الجملة»⁽⁵⁾.

من كل ما سبق نخلص إلى ما يأتي:

1. يمكن للتشاكل أن يكون جلياً أو خفياً.
 2. تعلق التشاكل بالتعبير والمضمون من ناحيتي: تشاكل التعبير وتشاكل المعنى.
 3. اعتبار التشاكل تكراراً لمظاهر لغوية، صوتية، صرفية، تركيبية.
 4. التشاكل آلية مهمة في الكشف عن التحام عناصر النص.
- ومن مظاهر التشاكل في شعر عبد الرحمن المجذوب نجد ما يأتي:

• الدنيا / رحلة

تشكل هاته العلاقة من مرجعيات عدة تؤسس لها، وقد سعى الشاعر عبد الرحمن المجذوب من خلال بعض رباعياته إلى طرح قضية الدنيا بصورها البسيطة أو المعقدة؛ فبث فيها نظريته وسبل إيصالها إلى الآخر من خلال ثنائيتين أساسيتين هما: الترغيب/الترهيب مع اختلاف طرائق عرضهما، والذي يجمع بينهما هو أن الدنيا تتشاكل مع الرحلة فلماذا الرحلة بالذات؟ ذلك أن الشاعر يرى أن الإنسان في دنياه ضيف يمر بمراحل مختلفة، لها بداية ونهاية يشبه المسافر في طريق طويل ينتقل من محطة إلى أخرى، يعيش ما يعيش من تجارب حياته ولكنه في الأخير لابد له من الوصول إلى خط النهاية-الموت -، لتبدأ مرحلة أخرى هي الآخرة، يقول ابن القيم الجوزية «الحياة طريق مسافر؛ والناس مذ خلقوا لم يزالوا مسافرين وليس لهم حظ رحالهم إلا في الجنة أو النار»⁽⁶⁾.

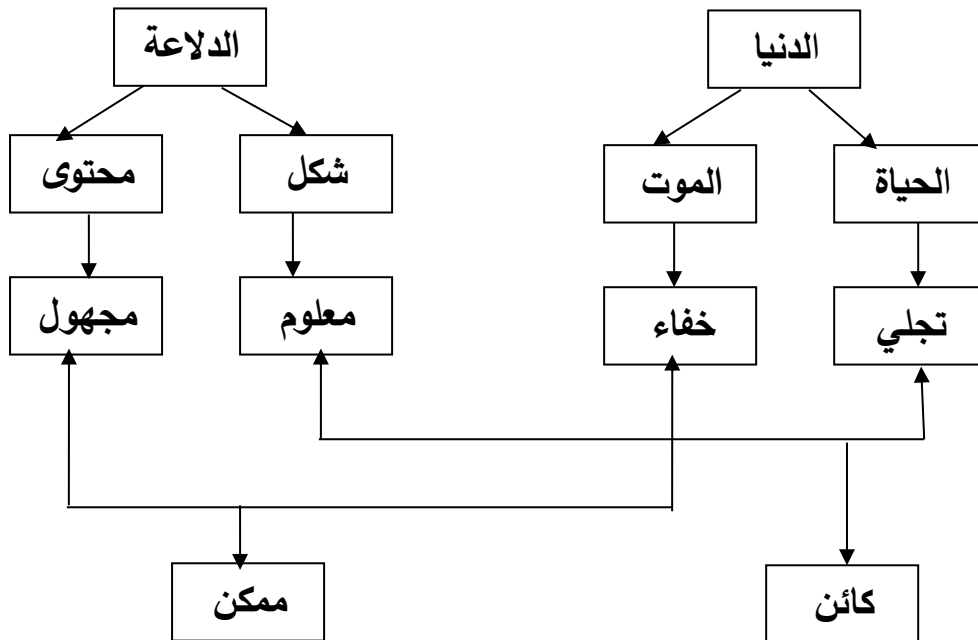
فما مراحل تلك الرحلة؟ وكيف بسط عبد الرحمن المجذوب مشكلة دلالة الدنيا بالرحلة؟ وهل سيسرد رحلته لنا؟ أم نحن المسافرون؟

3. 1. الدنيا / اضطراب: ارتأى عبد الرحمن المجذوب بيان أن الدنيا تتغير من حال إلى حال فلا تعرف الثبات أو الاستقرار، ما يجعلها في اضطراب دائم والمطلوب من الإنسان فهمه أن ذلك الاضطراب سيمر على جميع بني البشر على اختلاف أجناسهم وأعمارهم ودياناتهم، ومما قاله الشاعر عبد الرحمن المجذوب نذكر:

الدُّنْيَا شِبْهٌهَا دِلَالَةٌ تَدْرُدُّ مَا بَيْنَ الدِّلَالِ
 مَاذَا غَرَّتْ مِنْ طِمَاعِهِ حَتَّى رَمَاتُهُمْ فِي يَزْرِ مَالِهِ قَاعٌ⁽⁷⁾
 الدُّنْيَا مِثْلُهَا دِلَالَةٌ تَتَكْرَبُ مَعَ جَمِيعِ الدِّلَالِ
 الْحَاقِقُ عَطَى مَعَهَا سَاعَةٌ وَالْجَائِخُ غَدًا مَعَهَا قَاعٌ⁽⁸⁾

نحتاج أحيانا إلى أمثلة واقعية يومية لشرح أفكارنا وتدعيمها قصد تقريب الصورة وترسيخ الفهم في الأذهان، وهو ما عمد إليه الشاعر إذ جمع بين شيئين مختلفين؛ الدنيا/ الدلالة وعقد بينهما علاقة مشابهة منتزعة من عدة صور بينهما نوضحها فيما يأتي:

وما يجمع بينهما نوضحه كما يأتي:



ما يعني أن الدلالة شكلها يغري الزبون، ولكنه لا يعلم كيف سيكون مذاق ما بداخلها فتخرج من دائرة المعلوم إلى المجهول، والدنيا يعيشها الإنسان ولا يعلم ما سيكون من أمره فيها، فما هو مجهول الآن بعد قليل يصبح معلوماً، ودائماً هو في قلق حيال المستقبل، ففكرة معرفة المجهول أو المستقبل موجودة منذ وجد الإنسان، وفي هذا يقول طرفة بن العبد في معلقته:

سَتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ⁽⁹⁾

لكن ذلك الفضول أسوء نهاياته الدخول في متاهات لا مخرج منها، وأن سعي الإنسان يكون بلا رشاد حين يصبح الغد أكبر همه، وينسى أن يقدم لذلك الغد عملاً صالحاً، يعد عدته لآخرته، فكما هي الدنيا لا تستقر على

حال، فحياته للاضطراب فيها نصيب، فإما ستكون السعادة والتعاسة بشكل متناوب أو غلبة أمر منهما على حياته.

أي أن دلالة الدنيا تتشاكل والاضطراب في وتيرة مميزة تكسر أفق التوقع لدى المتلقي:

وهناك رباعيات أخرى اختار الشاعر عبد الرحمن المجذوب أن تشتمل على مقوم المشابهة بعناصرها المعروفة يقول:

الدنيا مثلها دراعة⁽¹⁰⁾ ما يلبسها غير الذي يشطح

يلبسها ويدوخ بها ساعة وتتكبد عليه بعدما يفرح⁽¹¹⁾

وأيضاً:

الدنيا مثلها عيرة⁽¹²⁾ والعيرة ما يلبسوها الأجواد

كاللي أخذمراة شارقة لا صحاة لا ولاد⁽¹³⁾

وإذ تبدى صورة أخرى لتشاكل الدنيا مع دلالة الاضطراب التركيز على معطى دوام الحال من المحال، فالدنيا أحوالها تتغير باستمرار من وضع إلى آخر سواء سلباً أو إيجاباً، ومادامت هي بكل تلك الحركة المستمرة، فلما نجعلها أكبر همناً؟ ونحمل أنفسنا مالا طاقة لنا به من أجلها؟ لذلك جعل الشاعر الدنيا مرة عيرة ومرة دراعة.

وفي الوضعين الدنيا فيها الخير(+) والشر(-)، الصحة والمرض، الغنى والفقر أي تحمل ثنائيات ضدية مختلفة تعبر عن وضعيتين متباينتين (أ) (ب)، وكل وضع له سلبياته وإيجابياته، لذا يجب الاقتناع بأن حال الدنيا في تغير، وعلى المرء التكيف مع ذلك بعدم الانقياد وراء زخارف الحياة البراقة والانغماس في الملذات، وعلى قدر أهمية الموضوع نوع الشاعر من طرائق تبليغه إذ يقول في بعض رباعياته:

الدنيا يسموها ناقاة إذا عطفت بخلينها تزويك

وإذا ما عطفت ماتشد فيها لباقة يتكفح⁽¹⁴⁾ ولو كان في يديك⁽¹⁵⁾

كذلك:

الدنيا ذنية الغيصة⁽¹⁶⁾ وهمها بيدبي⁽¹⁷⁾

ما نسد باب وخده ينفتحوا عشرة علي⁽¹⁸⁾

وأيضاً:

هَمَّ الدُّنْيَا هَـــــــمٌ وَحُبُّهَا بِيْدِيـــــــيْ
مَا نَغْلِقُ بَـــــــابَ حَتَّى يَنْفَتَحُوا عِشْرَةَ عَلَيَّ (19)

هاته الرباعيات على المسلك السابق تمثل لحملة فيما بينها لما يريد الشاعر أن يبثه للمستمع، فيعلم أن الحياة الدنيا ما هي إلا دار أولى والآخرة هي دار البقاء، ومهما كانت الصورة فلا يصح إلا الصحيح وما بني على باطل فهو باطل.

إضافة إلى كل ذلك فاستخدام التشبيه بين طرفيه الدنيا/ناقة هو تبسيط الفكرة للعوام والخواص؛ الناقة تدر الحليب دائما لكن يمكن أن تمنعه عنك رغم استخدامك لطريقتك المعهودة معها، فتتحول من منح إلى منع، مع الحرص على الإيمان بالقضاء والقدر في كل شيء.

وتتواصل تمثيلات تشاكل الدنيا مع الاضطراب في رباعيات عبد الرحمن المجذوب بشكل لافت للانتباه، وتنبيهه المُلح لجمهور المستمعين وتوعيتهم، بشكل يجعل أثر الرسالة المبتوثة مستمرا بين المرسل (الشاعر) والمرسل إليه (المتلقي)، نحو قوله: ←

لَا تَخِمِّمْ لَا تَدْبِرْ لَا تَرْفِدْ الِهِمَّ دِيَمَهُ
الْفُلْكَ مَا هُوَ مُسْمِرٌ وَلَا الدُّنْيَا مُقِيمَةُ (20)
أيضا:

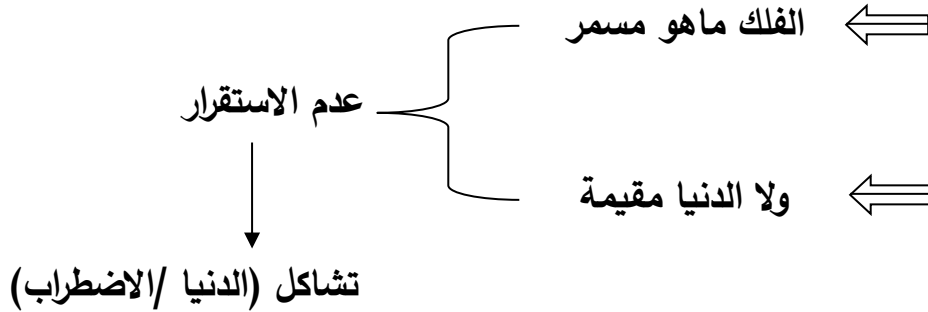
إِذَا هِيَ دِنْيَتُكَ مِهْمُومَةٌ وَزَمَانُكَ مَا هُوَ مَعَاكَ مَلِيحٌ
خِلَا لِدِرْسَةِ فِي التَّيْنِ مِلْمُومَةٌ وَاسْتَيْتَى حَتَّى يَهْبُ الرِّيْحُ (21)

يخرج الشاعر عبد الرحمن المجذوب من دائرة التشبيه والتلميح إلى التقرير، بتبدل محطات الحياة من شكل إلى آخر مؤكدا أن هذا التغير هو طبيعة ثابتة، تغدو وتجيء، والله الواحد القهار هو من يُسِيرُ الأقدار، ولو أن لحظات الكدر غلبت لحظات الصفو فلا بد للأحوال أن تنفرج وفي هذا المعنى يقول الإمام الشافعي:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ لَهَا الْفَتَى ذُرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ (22)
وله أيضا:

الدَّهْرُ يَوْمَانُ: ذَا أَمْنٍ وَذَا خَطَرٍ وَالْعَيْشُ عَيْشَانُ: ذَا صَفْوٍ وَذَا كَدَرٍ (23)

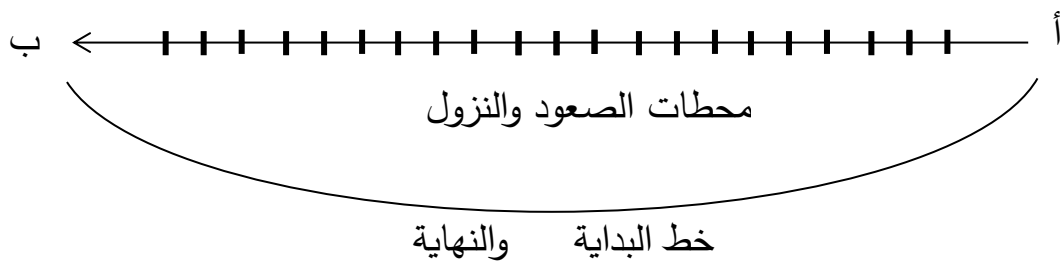
أي أن تقلب صروف الدهر أمر لا مفر منه يوم لك ويوم عليك، وما يهون من أمر كل ذلك الإيمان بالقضاء والقدر وأن الله يقدر ونحن لا نقدر، وإن كان الحزن أو الشقاء أكثر من الفرح إلا أن ذلك لن يدوم " فدوام الحال من المحال".



يعرض الشاعر أمر الدنيا التي لا تبقى على حال واحد، ثم يبين المسالك المؤدية للهدوء النفسي والصبر على كل حال، في الترسيم الآتية نوضح ذلك:

3.2. الدنيا / بداية النهاية

يرى الكثير من الناس أن حياتهم تسير في عربة من عربات القطار، ذلك أنه لهم نقطة انطلاق ووصول يتوقفون في بعض المحطات يصعد البعض وينزل البعض الآخر ويواصل البقية إلى النقطة الموالية أو يكملون لنهاية خط السير، كذلك لا يسمح القطار في سيره العودة إلى الخلف، وهو ما يشبه ما مضى من الحياة لا يعود ولا نستطيع إرجاعه، بالتالي رؤية البعض لخط سير القطار، وتشبيهه بحياتهم يساعد على فهمها ووجودنا في هاته الدنيا يمر بمراحل كما يأتي:



الميلاد هو البداية والوفاة هي النهاية هذا بديهي بالنسبة للجميع، ولكن تلك النهاية ما هي إلا بداية لنهاية أبدية أخرى وهي دار الآخرة حيث يقول تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾⁽²⁴⁾، وطالما هناك حياة يتبعها موت والذي يكون بوابة العبور إلى دار البقاء في هذا يقول عبد الرحمن المجذوب:

كَيْفَ نَعْمَلُ وَاشْ الْمَعْمُولُ مَعَ اللَّيْلَةِ الْمُؤَعَّدَةِ
الرُّوحُ سَافَرَتْ وَمَشَاتْ وَالْخَشْبَةُ بَقَاتْ مِمْدُودَةِ⁽²⁵⁾

كَيْفَ نَعْمَلْ وَاشْ الْمَعْمُولُ مَعَ لَيْلَتِي أَنَا وَخُدَيْي
لَا فَتِيلَةَ لَا قَنْدِيلَ غَيْرُ ضُوكُ يَا رَبِّي (26)

لكل سؤال جواب هذا أمر مسلم به، لكن هناك أسئلة كل جواب لها يستدعي سؤالاً آخر، وهذا ما نلمسه من بداية الرباعية: كيف نعمل؟ واش المعمول؟ إذ أن سكرات الموت تؤذن بالرحيل إلى العالم الآخر وأنه لا مفر من الموت، فيتحسر المرء على ما مضى من العمر في اللهث وراء المادة، ويستبد به الندم فيقول يا ليتني قدمت في حياتي ما ينفعني في آخرتي.

الروح سافرت ومشات } وعبر عن ذلك بقوله:
والخشبة بقات ممدود }
لا فتيلة لا قنديلة }
غير ضوك يا ربي }

الموت تمهيد لدار البقاء – الآخرة – أي يظهر تشاكل الدنيا مع بداية النهاية في الرباعية السابقة وكذا فيما يأتي من قول نحو:

الْأَرْضُ فِدَانُ رَبِّي وَالْخَلْقُ مَجْمُوعٌ فِيْهَا
عَزْرِيْلُ حِصَادُ فَرِيْدٍ مُطَامَرَةٌ فِي كُلِّ جِهَةٍ (27)

يؤكد الشاعر على أن الله إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فله الأمر من قبل ومن بعد، والناس بفقيرهم وغنيهم، عالمهم وجاهلهم، كلهم سواسية لأن الموت لا يفرق بينهم فكل نفس ذائقة الموت، تُحَاسَبُ كل نفس بما عملت خيراً أو شراً، وقد رسم الشاعر تلك الصورة بشكل واضح وتقريبي للأذهان؛ فالروح تخرج بأمر ربها ويتولى ملك الموت ذلك، فيصبح الناس كلهم سواسية أمام الموت فهم من التراب وإلى التراب.

وقد شبه الشاعر شكل القبور بالمطمور الذي يستخدمه الفلاح بحفر حفرة في الأرض لتخزين المحصول وليتم استهلاكه في الوقت المناسب، وكذلك القبور وما فيها من خلق الله، هذه الصورة تبث رسائل مختلفة لجمهور المتلقين؛ فالإنسان مهما كان وأينما حل مدركه الموت، وكل بهارج الحياة ولذتها لا تلغي الحقيقة الثابتة أن الموت آت، يقول سبحانه وتعالى في محكم تنزيله ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (28).

كذلك يضيف الشاعر عبد الرحمن المجذوب رباعيات أخرى تنحو المسار ذاته لتتشاكل الدنيا مع بداية النهاية إذ يقول:

الْمُوتُ فَنَاتُ إِلِيْ مُشَى وَالْمُوتُ تَفْنِي إِلِيْ بَقَى
يَالِإِلِيْ أَسَاءَ فِي إِلِيْ مُضَى كُنْ تَاقِيْ فِيمَا بَقَى (29)

عبارة "أنتم السابقون ونحن اللاحقون" لا يريد بها الشاعر أن تكون لئلا بالسنتنا، وإنما دالا على مدلول فالذي مات انتهى أمره بين الناس، بينما يبقى حضور ذكره إما طيبا أو ذما بين الناس طويلا، وكذا أفعاله تستدعي يوم الحساب يوم لا ينفع نفسا إلا عملها، يقول سبحانه وتعالى في هذا الصدد ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (30).

ولأن رحمة الله وسعت السماوات والأرض، فحتى العاصي تقبل توبته لأنه عاد إلى جادة الصواب وفي هذا ترغيب وترهيب لعباد الله، الترغيب في الاستمسك بتعاليم كتاب الله وسنة نبيه الكريم فالله عفو قدير والجنة ثواب المتقين، والترهيب في أن النار مثوى الظالمين، لذا بعد الموت يأتي يوم الحساب فتكون الدنيا مسلك عبور وانتقال من دار إلى أخرى من دار الفناء إلى دار البقاء.

وبهذا في كل مرة يظهر الشاعر من خلال رباعياته السابقة تشاكلا دلاليا بين الدنيا وبداية النهاية ليذكر الإنسان بالموت ويوم الحساب.

3.3. الدنيا / الزاد

لابد للمسافر أن يُعدّ العدة قبل سفره بتجهيز ما قد يحتاجه في طريقه أو مسيرته ضمانا للأمن والراحة، وكذلك الرحلة إلى الآخرة فعدته إيمانه وعمله، يقول العلي القدير في كتابه الحكيم، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (31).

لذا ارتأى عبد الرحمن المجذوب تضمين بعض من رباعياته دلالات متشاكلة مع زاد الآخرة في الدنيا ⇐ الدنيا / الزاد، نحو:

الْخَيْرُ عِقْبَةُ طَوِيلَةٍ وَسَالُوا عَلَيْهِمْ كُلَّ بَادِي

الشَّرُّ خُدُورَةٌ كَثِيرٌ لِقَى وَيَتِمُّ غَايِي (32)

أيضا:

اعْمَلْ خَيْرَكَ وَتَقْنِيْهِ وَاَعْمَلْ مِنْهُ مَطِيْرَهُ

إِلَّا مَا يَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا يَنْفَعُكَ فِي الْآخِرَةِ (33)

يقول المثل الشعبي "اللي يدير الخير يلقيه واللي يدير الشر يلقيه"، ويقال أيضا "دير الخير وإنساه يجي يوم وتلقاه"، وهو ما يتماشى وتعاليم الدين السمحة، فالخير لا يضيع أجره لا في الدنيا ولا في الآخرة، ينعم صاحبه في الدارين، والخير لا يشترط فيه أن يكون ماديا أو معنويا المهم فعل صالح يرضي الله، ويؤكد الشاعر على فكرة جهاد النفس وإبعادها عما يحول بين المرء والعمل الصالح، فالنفس أمارة بالسوء والشر فعله أسهل وسبله أقرب من سبل الخيرات، فيكون بمكابدة المشاق والإيثار والإيمان بالله واليوم الآخر.

لذلك أعتبر طريق الخير مسلكه صعب الوصول، لا يمكن التنبؤ بما سيكون فيه، لكن اليقين بأن الله في عون العبد الساعي للخير يكون أقوى:

الخير ← عقبة طويلة / الشر ← حدود كيزلق.

إضافة إلى أن صدق النية في فعل الخير هو الأساس، وكذا الحرص على أن لا يكون هم الفرد الانتفاع بما يسجني من وراء ذلك، فإن لم يتم له ما أراد انقلب على نفسه ورأى العمل الصالح لا نفع منه، لذا وجه الشاعر عبد الرحمن المجذوب رسالة إلى المستمع يقول فيها:

إِعْمَلْ خَيْرَكَ وَتَقْنِيْهُ
وَإِعْمَلْ مِنْهُ مُطِيْرَهُ
إِيْلَا مَا يَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا
يَنْفَعُكَ فِي الْآخِرَةِ

4. المحبة / اللذة والألم

ماذا يقال عن المحبة إذ هي لفظة مطاطة، تحيل على مدلولات لا حصر لها تتشاكل وتتباين فيما بينها، كُتب فيها الكثير والكثير من قبل الأدباء والشعراء والنقاد والدارسين والقراء... الخ، وذلك على امتداد الحضور البشري، وفي هذا العنصر كان حضور لفظة المحبة بأشكال مختلفة عند الشاعر عبد الرحمن المجذوب فسجل اشتقاقات عدة لها - المحبة - فلم تكن محصورة في نطاق علاقة الرجل بالمرأة فقط، بل تعلق بالإنسان في كل زمان ومكان فخرجت من نطاق الخاص إلى العام.

ومن خلال مجموع الرباعيات الموجودة في هذا السياق، تم رصد ثلاث اتجاهات منضوية في تشاكل المحبة مع دلالة اللذة والألم.

1.4. المحبة / اللوم

تظهر تلك المشكلة من خلال استحضار الشاعر عبد الرحمن المجذوب لمشهده مع العواذل ومحاولته إقناعهم بأن المحبة نعمة خاصة، وأن للمحبين لغتهم وعالمهم الذي لا يفهمه إلا صاحب تجربة فيه، من أمثلة ما أورده عن لائميته قوله :

لَوْ ذَاقُوا مِنَ الْحُبِّ
تَلَقَّاهُ مُبْغِذُ رُونِي
إِلَّا أَنَّهُمْ بَيَّرَ فِي جُوبٍ
نُعِيْطُ وَلَا يَسْمَعُونَ نِي (34)

يقول المثل الشعبي " الجِمْرَة مَا يُحْسِنُ بِهَا غَيْرُ الْإِي عَافِسْ عَلَيْهَا " وبإسقاط دلالته على الرباعية السابقة نتبين أن المحبة بعذاباتها وأفراحها لا يشعر بها إلا من سكنته فكما قيل:

لَا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

أما البقية فينظرون بغير عينك للأمور، لذا المحب يكثر لاثميه ممن يتمنون قطع تلك العلاقة ولو بهلاك أحد المحبين، والشاعر عبد الرحمن المجذوب لم يعد يهمله أمر المحيطين به فهم ليسوا على نفس مسلكه في الهوى إذ كل يغني على ليله، ومع ذلك يجد أن عدم امتلاكهم لمشاعر المحبة عذر لسوء فهمه فهنا يصدق عليهم "فَاقِدُ السَّيِّئِ لَا يُعْطِيهِ" وقد عبر عن هذا صراحة:

لَوْ دَافُوا مِنَ الْحُبِّ تَلَقَّاهُمْ يَغْدُرُونَِي

ويقول في رباعية أخرى:

تُكَلِّمِي يَا سَاكِنَةَ أَنَا قَلْبِي يَهْـوَاكَ

وَيَا مَا أَهْبَلَ النَّاسَ إِلَيَّ يَقُولُونَ نَسَاكَ (35)

يبدو أن الشاعر أتعبه تتبع بعض الناس لأمره مع من يهوى، ومعرفة ما كان وما سيكون فأكثرُوا من "الْقِيلُ وَالْقَالَ"، عاتبوه على هواها ولمَّا اختارها دون سواها ما الجديد والمميز فيها؟ وغيرها من قبيل تلك الأسئلة التي لا تنتهي.

لكن الشاعر لم يعد يرى التكتّم يجدي مع المتطفلين على حياته، لذا سأل محبوبته أن تجاهر معه بما يحمله قلبيهما من حب، حتى وإن يقصد أن تعلن ذلك معه أولاً ولكنه يريد إيصال رسالة بأن كل إنسان فيما يعشق سلطان" فَالنَّاسُ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبٌ" ليتم بذلك تشاكل المحبة مع اللوم، وكأن وجود المحبة يستدعي كثرة الملام والشكل الآتي يوضح ذلك:

مع تأكيد الشاعر على أنه رغم كثرة الأقوال والأحاديث عن من نحب، لكن التمسك بهم هو أنسب رد على ذلك، وهذا التأكيد نلمسه أيضا فيما يأتي من رباعيات وفيها:

الْمَحَبَّةُ كَأْسُ الْمُرِّ شَرِبْتُهُ الْمَعْطَاشَةَ

غَيْبْتُ فِي قَلْبِي مَا نَصُرُ وَجَلُّوهُ الْفِتَاشَةَ (36)

أيضا:

مِنْ أَلْبَابِ قُلْتِ نَزَّاحَ وَنَزَّلُوا عَلَيَا بِالْمُعَايِرِ

الْعِشْقُ يَنْبِتُ وَيُلْقِحُ وَالْعَبْدُ كُلُّ يَوْمٍ حَايِرٌ (37)

الواضح هنا ما قلناه سابقا عن ضيق صدر الشاعر من أحاديث العامة من الناس عن شؤونهم الخاصة، والتدخل فيها والإكثار من متابعته ونقده فصار لا يطيق ذلك، لذ وصف المحبة بكأس المر، والذين لهم قدرة على تحمل تبعات شرب ذلك الكأس هم المعطاشة، وجعل العشق كالنبات الحي ينبت وينمو باستمرار مثلما ينبت العشق ويتوطن في الفؤاد، وبمرور الوقت يكبر ويكبر رغم كل الصعوبات، ويؤكد الشاعر على أن أكبر مشكل تصادفه المحبة في طريقها بين المحبين هو أفكار الناس ونظرتهم السلبية وهذا واضح في:

← عييت في قلبي ما نصر

وحلوه الفتاشة

← من الباب قلت نرتاح

ونزلو عليا بالمعاير

ليصل إلى ما يريح قلبه وباله ويبعث به إلى الآخرين:

إِلَيَّ حَبِّكَ مَا بَيَّ لَكَ قَصِيرُ وَإِلَيَّ كِرْهِكَ مَا حَفِرَ لَكَ قَبِيرُ

وَإِذَا حَبِّكَ الْقَمِيرُ غَيْرُ خِلِي النُّجُومُ تَنْقُهِرُ⁽³⁸⁾

فإذا اتفق المتحابون على أن كلام الآخرين لا ينفع ولا يضر، ما داموا على قلب واحد لأن إرضاء الناس غاية لا تدرك والمثل الشعبي يقول: إذا حَبِّكَ الْقَمِيرُ بِكَمَالِهِ وَاشْ رَاحَ لَكَ فِي النُّجُومِ إِذَا مَالُوا.

ومن تتبع ما سبق نلبي أن لفظي المحبة واللوم متلازمين؛ فحضور الأولى يتبع بالثانية في الغالب، وفي رباعيات المجذوب كان تشاكل المعنيين بارزا فيها:

2.4. المحبة / الوصل

تعجز العبارات -غالبا- عن توصيف ما يجمع المتحابين أو العاشقين، نظرا للتدفق الوجداني المتجدد بينهم، ولقد طرق الشاعر عبد الرحمن المجذوب هذا الباب كغيره من الشعراء في بعض رباعياته نحو:

الْمُحِبَّةُ سِلْكُ الذَّهَبِ الصَّافِي مِنْ تِنْحَاسِهِ

مَوْلَاهَا كَيْثَرِ طَبْ بَاشْ يَسْلِكُ رَاسِهِ⁽³⁹⁾

ثم:

الْمُحِبَّةُ بِنْتُ الرُّضَى إِلَيَّ جِئَهَا مَلَكَاتِيهِ

مَا خَطَّاتٍ حَتَّى وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ كَيْفَ جَاتِهِ⁽⁴⁰⁾

استعمل الشاعر لفظة سلك من الذهب الصافي الذي لا يفسد بريقه، وبالنظر إلى وظيفته المعلومة وهي الربط بين شيء وآخر، أو بين شيئين، لاعتبار العلاقة بينهما تلك العلاقة الجلية التي لا تخفى على الناظر، وكذلك هو الحب في عيون المحبين مهما كانت الظروف، والمحبة يبذل كل ما في جهده من أجل صفاء الود وبقاء خيط المحبة موصولاً حتى لا تحدث القطيعة {عذاب}:

﴿مَوْلَاهَا كَيْتَرِطْ—بَبْ بَاشْ يَسْلِكُ رَاسِ—ه

وعبر أيضاً عن أن:

الْمَحَبَّةُ بِنْتُ الرِّضَى إِلَيَّ جِئَهَا مَلَكَاتِ—ه

فالمحبة تسكن كل جوانح المرء ويصبح ظلّالها، وبتجميع إحدائيات دلالة الرباعيتين السابقتين ويتنقل الشاعر عبد الرحمن المجذوب بين ألوان المحبة ليرسم ملامح قلبه فيقول:

قَلْبِي صَنْدِيقَةٌ ذَهَبٌ وَالْعِشْقُ هُوَ مِفْتَاحُ—ه

إِذَا هَبُّوا الْأَرْيَاحُ يَتَطَرَّطُّوْا أَلْوَا—ه⁽⁴¹⁾

جسد الشاعر المعنوي بمفهومه للمحبة بأن جعل قلبه صنديقه؛ وهي صندوق صغير الحجم ولكن كبير القيمة، ودليل ذلك أنه من معدن غالي شغل حبه الناس قديماً وحديثاً إنه الذهب ومفتاحه أمر معنوي هو العشق، وإذا كان قلبه صنديقه ذهب ومفتاحه العشق، فأكد أن بداخله الكنز المكنون من المشاعر وعلى الرغم من معدنه الثمين ومفتاحه الفاتن، إلا أنه أوهن ما يكون عندما تهب الرياح ولا ندري آهي رياح تحمل الخير؟ أم الخراب؟ وتلك الرياح يمكن أن تكون ملامة الناس له أو أشواقه لمحبيه، ولكن الأكيد أن ألواحه ستتداعى وتفضح ما فيه من حب وهيام:

دَيْكُ الطِّيُورِ إِلَيَّ طَارُوا وَفِي السَّمَاءِ عَمَلُوا دَارَةً

مَنْيْنُ شَافُوا حَبِيبِي—ه وَدُو إِلَيْهِ بِالْغَارَةِ⁽⁴²⁾

كذلك:

تَمْنِيَتِي طَيْرٌ وَنَطِيرٌ وَعَلَى جَنَاحِي تُؤَسِّي—ه⁽⁴³⁾

نَحِطُ فِي دَارِ الْأَحْبَابِ وَنَشُوفُ إِذَا سَالُوا عَلَيَّ—ه⁽⁴⁴⁾

غير الشاعر مسلكه من وصف الهوى، إلى البحث عن طريقة تقربه ممن يهواه فالمسافات والأحوال ألهمت الشوق وأذكت ناره في صدره، فاختار طريقة توصل بها الكثير من الأدباء وتم إيرادها في كثير من النصوص الدينية والأساطير والفنون والآداب، وهي الطائر الذي كان له حضور قوي في تصورات الإنسان للحياة وتعبيره عن نظرتة للعالم «ففي كثير من الثقافات تعد الطيور طرفا كاملا في النسيج الاجتماعي، إذ تؤدي دورا هاما في الفولكلور والفن والشعائر الدينية»⁽⁴⁵⁾، لذلك يتم عادة معادلة الطير بالروح وبالنفس البشرية.

والشاعر الشعبي على اختلاف الموضوعات والأغراض، احتفى بالطير بشكل كبير فهو رفيقه الذي يسمع نجواه ويبوح له بأسراره، هو مؤنس الوحشة في الحل والترحال وفي هذا يقول الباحث عباس الجراري «وعلى عادة الشاعر الشعبي الشغوف بالتشبيه والمقارنة والرمز، فقد تخيل المحبوب المهاجر، طائرا نافرا حضه بقصائد أطلق عليها الطرشون وهو اسم لنوع من الطيور»⁽⁴⁶⁾.

وقد استعان الشاعر عبد الرحمن المجذوب بالطير كرسول محبة بينه وبين محبوبته ينقل رسائله إليها، ويخبره بحالها في غربتها عنه، دَيْكُ الطُّيُورِ الَّتِي طَارُوا، ولشدة الشوق والوله يتمنى أن يكون طيرا يسافر بجناحيه قاطعا الفياقي والقفار، إلى أن يصل مكان حبيبته فيبوح بخوالجه: تَمْنِيْنِي طَيْرٌ وَنَطِيرٌ، فالواسطة هنا هو الطائر الذي يأتي بالأخبار ويوصل الود بين العاشقين، وكلما ابتعد المحب عن محبوبه زاد تلهفه لسماع أي خبر عنه، فيطرق كل باب ولا ينعدم من اكتشاف وسائل الوصال ومن أمثلة ذلك قوله:

حُبِّيِي إِنْ غَضِبَ مَا صَبْتُ لَهُ طَبْ بَعْدَ الْمِحْبَةِ جَفَانِي
نَجِيبُ الْكُوَيْسِ وَنُكْبُ وَنَحْدَثُهُ بِالْمَعَانِي⁽⁴⁷⁾

إضافة إلى ذلك تشوب العلاقة بين المتحابين بعض الفتور بين الفينة والأخرى لأسباب عدة، وإن طال زمنه حل الجفاء وكثر الخصام بينهما، فتكتب نهاية الحب سريعا، لذا أراد الشاعر طرق باب الصلح وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيحة ويصفوا له حبيبته قائلا:

حُبِّيِي إِنْ غَضِبَ مَا صَبْتُ لَهُ طَبْ بَعْدَ الْمِحْبَةِ جَفَانِي

فاختار الجلوس معه ومسامرته ومعاتبته بأحاديث يحضر فيها العقل لأخذ العبر والدروس: نحدثه بالمعاني، أي أن القطيعة والهجر لا يتحملهما الشاعر، وهذا ما يجعله يقدم على مسعى الإصلاح والتقرب والتودد مرة أخرى، فالمحبة مثلما عبر سابقا؛ نبات له شروط ليحيا وينمو، وأهم تلك الشروط الوصال، وعليه تصبح المحبة متشاكلة دلاليا مع الوصال.

3.4. المحبة / الفصل

أدمت آلام الهجر والفراق قلوب العشاق، فأسالوا ما لا يحصى من المداود وألفت فيها الدواوين وأعيت القراء والنقاد، وعبد الرحمن المجذوب ابتلي بها على غرار باقي الشعراء ففي العنصرين السابقين، ألفيناه يتلذذ بهواه فكتب واصفا ومدافعا عنه بداية وسرد لنا ما به من نعمة الحب بوصول حبيبته، ولكن دوام الحال من المحال، ففي هذا العنصر سيتغير الوضع إلى الأسوأ، حيث يقول:

كَيْفَ نَدِيرُ مَعَ الْحَبِيبِ إِلَيَّ يَصْرِفُ خَيْرُهُ فَيَا
الْفِرَاقُ جَانِي صَعِيبِ وَوَجْهَهُ عَزَّ عَلَيَّ (48)

الواضح هنا أن الشاعر أعياه فراق من يهوى ولم يطق كتم سره بين أضلعه، فبث شكواه عليه يلقي السلوى فابتداء بالسؤال: كَيْفَ نَدِيرُ مَعَ الْحَبِيبِ؟ ذلك الحبيب الذي نزع إلى الصد والهجران وهو مالا طاقة للشاعر على تحمله فمصابه جلل لا يستطيع وصفه، فيذكرنا بمن سبقه من المحبين المبتلين بالهجر ومنهم الشاعر عمر بن أبي ربيعة مثلاً لا حصراً:

وَلَقَدْ قُلْتُ إِذْ تَطَاوَلَ هَجْرِي رَبِّ لَا صَبْرَ لِي عَلَى هَجْرٍ هُنْدِ
رَبِّ قَدْ شَقِيئِي وَأَوْهَنَ عَظْمِي وَبَرَانِي وَزَادَنِي فَوْقَ جَهْرِي
رَبِّ حَمَلْتَنِي مِنَ الْحُبِّ ثِقَلًا رَبِّ لَا صَبْرًا لِي وَلَا عَزَمَ عِنْدِي (49)

الشاعر ← المحبة ← وصل

الشاعر ← المحبة ← فصل

أي أن المحبة تتشاكل مع الفصل فاللمحبة ألم ولذة في حالتي الوصل والفصل، وفي رباعيته يتجه إلى اتخاذ منحنى آخر من الفراق أو الفصل بينه وبين من يحب:

يَا قَلْبِي نَكْوِيكَ بِالنَّارِ وَإِذَا بُرِيتِي نَزِيدُكَ
يَا قَلْبِي خُلِفْتُ لِي الْعَارُ وَتُرِيدُ مِنْ لَا يُرِيدُكَ (50)

إذ أثر أن ينتصر لنفسه وكرامته على هوان البقاء في ود من لا يهواه أو من لا يرى أملاً في حبه، إذ النأي أفضل له، حتى أنه عبر بالفاظ ذات شحنة عاطفية قوية بمفردها وتتفاعل مع بقية الألفاظ داخل الرباعية لتكون أقوى فأقوى من قبيل: نكويك/نزيدك، العار، لا يريدك، فمثلاً نكويك كان لها أثرها في السياق الشعري العام فالشاعر وصل إلى النهاية مع محبوبه ورأى منه انسداد السير في مسلك المحبة بينهما، إذا يكون البعد عنه سلاحاً

موجها نحوه من قبل محبوبه لذلك قال: يا قلبي نكويك بالنار، وفي الطب الشعبي يقال: "آخر الطب الكي" وهذا ما رأى فيه الشاعر راحة له من كل ما يكابده في حب من طرف واحد أو محبوب مجافٍ.

فالحبل ما يجمع بين اثنين ويتم الاتفاق والتواصل بينهما، فلا يتأثر بالتافه أو العظيم من الأمر سيبقى الود داعم اله، لكن لما يكون الكدر والصد مصير أحدهما يموت الحب في الأخير، إضافة إلى ذلك نلفي في الرباعيتين السابقتين (1) و(2) الفراق كان موازيا لوجود المحبة، التي خفت أو كانت من طرف واحد ونوضحها. مع العلم أن الشاعر أو المحب لو اختار البعاد فلن يكون الأمر سهلا، فقد اختار أصعب الوضعيتين؛ إما العذاب في قربه أو العذاب في بعده، ويبقى الزمن خير طبيب مداو له، يقول:

قَلْبِي جَائِبُنْ الْمُعْلِمِ⁽⁵¹⁾ وَالزِّرَّةِ⁽⁵²⁾ وَالْحَدَادُ مُشُومٌ مَا يَشْفِقُ عَلَيْهِ
يُرْدِفُ لَهُ⁽⁵³⁾ الضَّرْبَةُ بَعْدَ الضَّرْبَةِ وَإِذَا بُرْدُ يُزِيدُ النَّارَ عَلَيْهِ

فقلب الشاعر بين المطرقة والسندان أي واقع في ضيق من اختيارين اثنين لا يعرف كيف يُقَدِّمُ على أحدهما، أما الحداد فمممكن أن يكون ذلك المحب غير المبالي بحال الشاعر المولع بهواه، أو يمكن أن يكون حديث الناس عنه وعن سوء اختياره لذلك الشخص، وهو حداد مشوم لأنه كلما رأى جراحه بدأت تندمل زاد في اشتعالها مرة أخرى، فيزيد من عذابات الشاعر الذي لا ذنب له سوى الإخلاص في حبه والتفاني فيه إلى أن وصل موصله ذاك من الألم.

نستخلص في الأخير:

- في معرض حديث الشاعر عبد الرحمن المجذوب عن الدنيا تم رصد النقاط الآتية:
- لم ينفك الشاعر عبد الرحمن المجذوب عن التنبيه على أن الدنيا مثل حقل الفلاح يقوم فيه بكافة أشغاله، وينتظر موسم الحصاد ليحني عمله.
- إلحاح الشاعر عبد الرحمن المجذوب على المتلقي بأن الدنيا فيها محطات إيجابية وأخرى سلبية، قصد تقبلا لأمر وألا يجعل المرء الدنيا أكبر همه.
- تتشاكل الدنيا مع الرحلة في التغير وتنوع مراحل العمر؛ بحلوها ومرها، يخضع بموجها الإنسان لعدد التجارب الحياتية.
- زاد الإنسان في الدنيا العمل الصالح الذي يؤتي أكله في الدارين.
- المحبة بكل ثنائياتها تشمل اللذة والألم.
- أحيانا يكون للذة والألم تداخل وتمازج كبير في المحبة ويصعب تحييد أحدهما عن الآخر.

هوامش البحث:

- ¹ - ينظر عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003، الجزائر، ص 246.
- 2- ينظر محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، ط 4، 2005، المغرب، ص 19.
- 3- المرجع نفسه، ص 25.
- 4- عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة، قصيدة القراءة "تحليل مركب لقصيدة أشجان يمنية"، دار المنتخب العربي، 1994، بيروت، ص 34.
- 5- رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص عربي انجليزي فرنسي، دار الحكمة، 2000، الجزائر، ص 94.
- 6- تدرّب: تتدحرج.
- 7- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، جمع وتح محمد بلاجي، مطبعة النجاح الجديدة، 2015، المغرب، ص 192.
- 8- المصدر نفسه، ص 200.
- 9- طرفة بن العبد، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط 03، 2002، لبنان، ص 66.
- 10- دراعة: لباس.
- 11- عبد الرحمن المجذوب، القول المأثور، ص 102.
- 12- عيرة: لباس رث وبالي.
- 13- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 188.
- 14- يتكفح: يتبدد، يضع.
- 15- عبد الرحمن المجذوب، القول المأثور، تقديم وشرح نور الدين عبد القادر بن إبراهيم، مكتبة الوحدة العربية، دط، دت، المغرب، ص 93.
- 16- الغيص: الوحل.
- 17- بيدبي: أهلكني.
- 18- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 186.
- 19- المصدر نفسه، ص 187.
- 20- عبد الرحمن المجذوب، القول المأثور، ص 95.
- 21- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 187.
- 22- الشافعي، ديوان، تعليق وتقديم صالح الشاعر، مكتبة الآداب، ط 2، 2006، مصر، ص 40.
- 23- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 72.
- 24- سورة الأعلى، الآيات 16، 17.
- 25- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 140.
- 26- المصدر نفسه، ص 140.
- 27- المصدر نفسه، ص 141.
- 28- المصدر نفسه، ص 198.
- 29- المصدر نفسه، ص 198.
- 30- سورة غافر، الآية 39.

- 31- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 71.
- 32- سورة الزلزلة، الآيات 7، 8.
- 33- سورة غافر، الآية 17.
- 34- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 68.
- 35- المصدر نفسه، ص 87.
- 36- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 103.
- 37- المصدر نفسه، ص 111.
- 38- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 107.
- 39- المصدر نفسه، ص 114.
- 40- المصدر نفسه، ص 113.
- 41- المصدر نفسه، ص 110.
- 42- المصدر نفسه، ص 107.
- 43- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 130.
- 44- المصدر نفسه، ص 111.
- 45- تونسسيه : ربما يقصد إنسية وهذا الأصوب حتى يستقيم المعنى (تأتية بأخبار الحبيبة).
- 46- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 112.
- 47- محمد بوستة، شعيرة القصيدة الزجلية المغربية الحديثة، المطبعة السريعة، 2014، المغرب، ص 72.
- 48- عباس الجراري، الزجل في المغرب " القصيدة، مطبعة الأمنية، 1970، المغرب، ص 283..
- 49- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 111.
- 50- المصدر نفسه، ص 110.
- 51- عمر بن أبي ربيعة، ديوان، تح عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، 2007، بيروت، ص 88.
- 52- عبد الرحمن المجذوب، الرباعيات الصوفية، ص 122.
- 53- المعلم : المطرقة.